تاريخ الطب عند العرب

ايها السادة :

لا يسعني ان افوه ببنت شفة قبل ان احيي بكل اجلال وتعظيم صاحب ذاك الروح الزكي الذي شيد هذا المعهد العلمي وألثم بشفتي معرفة الجميل تلك الايادي البيضاء التي أحيت دارس آثاره وفتحت مغلق أبوابه . وأثني الثناء الطيب على حضرات رئيسه وأعضائه الاساتذة الأجلاء . واشكر حضور هذا المجلس الكرام لما يبدونه من الاهتمام بترويج بضاعة العلم وإحياء آثار السلف المتجلي بتشريفكم ايها السادة لسماع محاضرة هذا العاجز . في ساعة تذوق فيها النفس للرياضة والنزهة مما يستوجب لكم شكري ويستمطر عليكم وابل بركات تلك الأرواح العظيمة التي ترفرف الآن في بهو هذا المحفل منتعشة لذكر أسمائها وسرد عظيم أعمالها .

فعليكِ منا سلام الله ايتها الأرواح الطاهرة أرواح سلفنا الصالح أرواح تلك الشموس الساطعة التي أضاءت بكواكب معارفها ظلمات القرون المتوسطة ، وهدت بما تركته من أعمالها خلال القرون الأخيرة ، وخلدت بعظيم جهادها اسم العرب محفوفاً بالإجلال والتعظيم ، رغم مابلي من لباسهم وما شوهت الايام من ناضر محياهم .

غربت تلك الشموس وبات العالم من بعدها رجلين شأن حال دعاة الإصلاح في كل عصر وقطر . رجل مفتون وآخر محزون ، رجل مادح وآخر قادح . فريق ذهب الى ان العرب هم الذين ابتدعوا الطب وأوجدوه ، وابتكروا جميع فروعه وصنفوه ، وفريق ذهب الى ان العرب أخذوا الطب اليوناني فقلبوه رأساً على عقب فكان لهم مشابة القلم للكاتب او الهيكل العظمي للجسم . وذهب آخرون الى عكس ذلك من ان العرب لم يكونوا سوى واسطة نقل صماء او حرف جر بلا معنى ما بين الأطباء الأقدمين والمتأخرين نقلوا على ظهورهم معارف الأقدمين ولم ترمقها عيونهم ولا تلمسها أناملهم . فكان نصيبهم من الفضل نصيب الناقل لا نصيب الواضع عدا انه لم ينبغ

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ الدكتور أسعد الحكيم من اعضاء المجمع العلمي العربي في ردهة المجمع في دمشق يوم الجمعة في ٣٠ آذار سنة ١٩٢٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيهم طبيب ولا حكيم . وزاد قوم على ذلك من بشاعة التحامل فقالوا ان العرب قد شوّهوا وجه الطب القديم بما أدخلوه عليه من الخرافات والتدجيل مما عبث به وبالانسانية أعصاراً وأدهاراً .

فمن الحق يا ترى ؟ وما ذا يكون القول الفصل ما بين هذه الأقوال المتضاربة والأحكام المتناقضة ؟ هذا ما توخيت البحث فيه ، وانا على يقين تام بأني لا أفي هذا الموضوع حقه ولكن وشل خير من سراب ووميض برق خير من ظلام وحركة خفيفة خير من جمود مستمر .

في كل من تلك الأقوال المتضاربة إفراط وتفريط وخطأ وصواب . اما الحقيقة فهي مترددة ما بين طرفي النقيض .

* * *

لم يخلق العرب الطب ولم يبتدعوه كما انهم لم يكونوا واسطة نقل صماء ما بين الأقدمين والمتأخرين .

ليس الطب من حيث مبادؤه من صنع أمة من الأمم تمن على العالم بايجاده . بل هو حركة من حركات الانسان الاول سيق اليها بدافع فطري ، هو حس المحافظة على الحياة وتجنب الآلام . فكان يضغط على جراحه ليقطع النزف او يبطل الحس ، ويجتنب الحركة تسكيناً للألم ، ويلتمس الحرارة اثناء البرودة ، ويتطلب البرودة خلال الحمى من الافعال الغريزية التي نشاهدها عند جميع الحيوانات . ثم اخذ هذا الحس الطبيعي يتحول بالتدريج الى إدراك ثم الى معرفة ثم الى علم وفقاً لسنة الارتقاء .

واول من عُني من الامم بجمع ما اهتدى اليه الانسان بسائق الطبيعة اوالتصادف من الوسائط التي من شأنها دفع الأمراض ومحافظة الصحة هم الكلدان . وقد حملهم اهتمامهم بهذا الامر الى وضع مرضاهم على معابر الطرق حتى اذا مرّ بهم احد أصيب بما هم مصابون به ينبئهم بصورة شفائه ، فيكتبون ذلك على ألواح يعلقونها على هياكلهم فكانوا بالنسبة الى الطب كالمحتضن بالنسبة الى الطفل كفلوه رضيعاً ، فلم يلبث عندهم حتى اختطفه من بين ايديهم اليونان فأكرموا مثواه وأحسنوا حضانته . فتبناه أبقراط وكفله سقراط وهذبه جالينوس ، فنما صحيح الجسم قوي البنية ، تكاملت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالتشريح أعضاؤه ، وتهذبت بفلسفة الحياة أخلاقه ، وصينت بحجاب علم الامراض صحته ، وأصلحت بفن التداوي البسيط مفاسده . فغدا يافعاً يسحر الالباب بفرط جماله ، وعلماً جليلاً تشد رحال الحكماء من عامة الاقطار الى آثينة لاقتباس جواهر أحكامه . غير انه لم يطل العهد حتى أخنى الدهر على اليونان بكلكله ، وقضى على مدنية الرومان بجحفله ، فأظلمت تلك الشموس بعد النور ، وتعكرت تلك المياه بعد الصفاء ، وذلت تلك النفوس الأبية ، واستعبدت تلك القلوب الحرة . فأجدب روض الطب بعد الخصب ، وكسدت سوقه بعد الرواج ، فشرد حقيراً يتطلب ملجأ يلتجيء اليه وأباً باراً يعطف عليه . فقذفت به المحن طوراً الى بيزنطية وآخر الى رومية وحيناً الى الاسكندرية واخيراً الى جنديسابور . وكانت حاله في كل من تلك العواصم بين صعود وهبوط ، وإقبال وإدبار ، وخصب وجدب ، الى ان عمت الفوضى وعظم الخلاف ، فاشتغل عنه الناس بالفتن الدينية والاختلافات المذهبية فبات وليس لديه ما يسد به رمقه ، وليس عليه ما يستر به جسده . تغيرت ملامحه وتشوهت محاسنه ونفر منه طلابه ، وتوقفت عن النمو اعضاؤه . يافعاً حرمته مظالم الاضطهاد ان يبلغ رشده وغصناً يانعاً منعته عوامل الاهمال ان يؤتي أكله . وبينا هو يلفظ رمقه الأخير ادركه العرب بتريافهم فانتعش بعد الاحتناق ، واستأنس بعد اليأس ففتحوا له رحب صدورهم ، وأوردوه عذب المناهل من عقولهم ، ثم كسوه بما عثروا عليه من القلانس الهندية ، والتيجان الفارسية ، وحلوه بما ابتكرته عقولهم من بنات الافكار ، وما ابتدعته من الاكتشافات والاختراعات ، فطاب له رغد العيش وصفاء الهواء ، فشب فيما بينهم عربي المنطق فصيح اللسان ، لغته لغتهم ، وكسوته لباسهم ، وزينته حليهم ، فليت شعري كيف لا يعترف لهم بالجميل وهو ابن احسانهم وهلا يكون مديناً لهم بالحياة ، وهو ربيب سعيهم واجتهادهم وهلا تقر اوربا باجمعها بفضلهم ، وقد زفوه اليها فتياً يتفاطر ماء الحياة من وجهه ، تهذبت بعشرته اخلاقها وتناسل منه طبها وجراحتها .

قال الدكتور غستاف لبون في حضارة العرب (ص ٦١٤) مؤيداً ذلك : ليس كما يقال بواسطة الصليبيين بل بواسطة الاندلس وصقلية وايطالية (و يعني بايطالية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مدرسة سالرنة التي كانت تدرس فيها المصنفات العربية) دخل العلم الى اوربا فأسس في سنة ١١٣٠ في طليطلة تحت ادارة رئيس الاساقفة ريموند مكتب ترجمة نقل الى اللاتينية أشهر مؤلفي العرب وكان نجاح هذه التراجم عظيماً دخل بها الغرب في عالم جديد . وظل السعي متواصلاً في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم ينقل الى اللاتينية مؤلفو العرب كالرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقل ايضاً المؤلفون اليونانيون كجالينوس وأبقراط وغيرهم الذين ترجم العرب مصنفاتهم الى لغتهم . وبفضل تلك التراجم حفظت الى زمننا مصنفات مؤلفين قدماء فقدت كتبهم الاصلية . الى ان قال : فالى الغرب خاصة لا الى رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية يعود الفضل بمعرفة التاريخ القديم ، والعالم باجمعه مدين لهم بعرفان الجميل لانقاذهم هذا الكنز الثمين . وقد كتب (م لبيري) « امحوا العرب من التاريخ فنتأخر نهضة الآداب في اوربا قروناً متعددة » وقد أيد زميلنا الدكتور يوسف حريز هذه الحقيقة في كتابه الذي وضعه وأسماه حظ الطب العربي في نشوء الطب الفرنسي . فانه بعدما أظهر ما كانت عليه اوربا في القرن التاسع والعاشر للميلاد من الجهل والهمجية على خلاف الممالك العربية التي كانت ترفل في ذلك العهد بابهى حلل الحضارة والمدنية الرفيعة قال : قدم في القرن العاشر للميلاد جربر دي اوريلياك الى الاندلس فأخذ العلوم عن العرب ثم عاد فنشرها في اوربا ولاسيما في فرنسا بواسطة مدرسة ريمس وشارتر . وقدم الى ايطاليا في القرن الحادي عشر قسطنطين الافريقي وكان تلقن العلوم العربية في خراسان والشام ومصر والقيروان فنشر فيها العلوم العربية بواسطة مدرسة سالرنة . وقدم الى طليطلة في القرن الثاني عشر جرار دي كريمونا فتعلم العربية فيها بقصد الترجمة فنقل الى اللاتينية ستة وسبعين مؤلفاً لأشهر علماء العرب فكان الصلة بين العرب واوربا .

* * *

لا ننكر بان بعض الفروع الطبية كالتشريح وعلم الحياة والقيالة لم تنم عند العرب كبقية الفروع الاخرى وذلك لامتناعهم بدافع اعتقادات او عادات في ذلك الحين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من تشريح الموتى والنظر الى النساء . اما بقية الفروع الطبية كالامراض والجراحة والمداواة والكيمياء والمفردات الطبيـة والصيدلة فقد كان لهم فيها المام خاص ونبوغ زائد . فقد وصفوا كثيراً من الامراض التي كانت مجهولة كالحصبة والجدري . وابتدعوا كثيراً من العمليات الجراحية الخطيرة كقدح العين وتفتيت الحصاة ، وقلموا فن المداواة القديم رأساً على عقب بما أدخلوه عليـه من النظريات والمفردات الطبية الكثيرة والادوية المركبـة ، واستعمال الماء البارد . واما الصيدلة فهي بنت ابتكارهم وفيها من الاسماء العربية التي تنطق بها حتى اليوم مايشهد بعربيتها ابدالدهر .

اما ماينسبه الفريق المتحامل على العرب من انهم أدخلوا على الطب بعض الخرافات كالطلاسم والرقية وغير ذلك فهـذا مما لم يختص به العرب ، ومثل هذه الاعتقادات الوهمية كانت سائدة في كل عصر وقطر عند الأقدمين والمتأخرين حتى في أيامنا هذه ، وعند جميع الشعوب على درجات متفاوتة . على ان مثل هذه الاعمال الوهمية قد لا تخلو من فائدة في معالجة بعض الامراض العقلية ، وهذا ماساعد على انتشارها والاعتقاد بها . اما ما ينكره الفن الحديث عليها فذلك ان الدجالين ممن لا معرفة لهم ولا ميزة في أخلاقهم انشأوا يستعملونها و يجعلونها أحبولة للارتزاق يستخدمونها في غير ما وضعت له ، فيضرون بها كثيرين ولا ينتفع منها بالعرض الا القليل النادر .

هذه نظرة عامة في حياة الطب الإجمالية في أدواره المختلفة . اما الطب العربي بصورة خاصة فهو لا بد لنـا للاحاطة به من شد رحال الفكر الى أوائل القرون الوسطى لنشاهد الطبيب العربي في عصر جاهليته ما بين اليمن والحجاز يحمي شفار الحديد بالنار ليبتر بهـا عضواً فاسداً (لاغاني ١٣ — ١٣٧) و يتلو العزائم الوهمية ليشفي باسرارها مرضاً مستعصياً . ثم نرافقه الى دمشق ثم الى بغداد ومنهـا الى مصر والاندلس حيث نراه استاذاً في الطب يدير المستشفيات العظيمة ، و يجري العمليات الجراحية الكبرى ، يؤلف الكتب و يدون المشاهدات ، يتقاطر اليـه طلاب الحكمة من كل حدب وصوب .

* * *

كان شأن الطب عند العرب في عصر جاهليتهم شأنه عند جميع الامم في حال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بداوتهم مقصوراً على تجارب بسيطة نافعة وصلت اليهم عن طريق التوارث ، وعلى اعتقادات وهمية انتقلت اليهم بعامل التواتر والتعارف ، وكان يقوم بمهام هذه المهنة الكهان والعرافون فيعالجون المرضى بالرقية والسحر والعزائم والنذور وغير ذلك . ويستعملون أحياناً بعض العقاقير البسيطة والاشربة المركبة من العسل . وكان لهم إلمام خاص باستعمال الكي بالنار في كثير من الامراض . واشتهر عندهم كثير من المتطببين الذين لم يصل الينا سوى اسمائهم لذهابها مذهب المثل ، كلقمان الحكيم وابن حذيم وغيرهما . اما في نهضتهم الاخيرة قبل الاسلام فقد اشتهر عندهم أطباء حقيقيون أفرّ لهم أساتذة هذا الفن من الأعاجم المعاصرين لهم بالفضل والحذاقة . منهم الحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب في عصره . اصله من ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس وتعلم الطب فيها ، وأجاد في هذه الصناعة وطب في أهل فارس وشهدوا له بالفضل وحصل له بذلك مال عظيم . ثم عاد الى الطائف وكان معاصراً للنبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي يوصي باستيصافه .

واشتهر من بعده ولده النضر بن الحارث . وكان فيلسوفاً عالماً وطبيباً ماهراً ومنهم ابن ابي رومية التميمي وكان جراحاً مزاولاً لاعمال اليد (طبقات الاطباء ج ١ من ١٠٩ — ١١٦) .

على ان الشريعة الاسلامية الغراء وفي صدرها القرآن جاءت ملأى اذ ذاك بالتعاليم الصحية القويمة الأساسية التي لا شأن لنا بسردها اذ ليس للعرب في استنباطها ناقة ولا جمل .

وما زال الطب عند العرب علماً سماعياً يتناقلونه بالافواه ، الى ان فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية وكان فيها للطب مدرسة تدرس فيها كتب جالينوس الاثنا عشر ومن أساتذتها عبد الملك بن ابجر واهرن القس ولهذا كناش بالسريانية يدعى القوانين نقله ماسرجو به البصري الى العربية في بدء القرن الثامن للميلاد وهو ثلاثون مقالة . وهذا اول كتاب طبي ترجم الى العربية وذلك ايام عمر بن عبدالعزيز (طبقات الاطباء ١ — ١٠٩) .

هنالك في الاسكندرية وقف العرب لأول مرة على أطلال المدنية اليونانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القديمة فأعظموا أمرها ، وعثروا على البقية الباقية من علوم الأقدمين فتشوقوا لدرسها واول من دعا العلماء الى ترجمة الكتب اليونانية الى العربية خالد بن يزيد الأموي حفيد معاوية الاكبر وكان ولعاً بعلم الكيمياء فاستقدم جماعة من الاسكندرية منهم مريانوس الراهب فعلمه صناعة الكيمياء ثم نقلها له اصطفان القديم (الفهرست ٢٤٤) وهذا اول من نقل في الاسلام من لغة الى لغة ، و بالنظر لاندماج جل الأطباء الأقدمين الطب بالكيمياء نقل بهذه المناسبة كثير من معلوماتهم الطبية الى العربية .

* * *

واجل من اشتهر من العرب بالعلوم الطبيعية وضرب فيها بسهم وافر ولا سيما في الكيمياء جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي من رجال القرن الثاني للهجرة وقد اختلف الناس في امره فقال جماعة من المتأخرين انه اخذ الكيمياء عن جعفر الصادق رضي الله عنه وفي ذلك خطأ كبير لانه لم يعثر في كتب التراجم المعتمدة كالفهرست وطبقات الاطباء وكشف الظنون وغيرها من امهات الكتب الموثوق بها على ما يدل على ان جعفر الصادق كان عالماً بالكيمياء او انه اشتغل بهذه الصناعة بل جل ما ذكره ابن النديم في هذا الصدد ان الشيعة قالت ان جابراً من كبارهم وزعموا انه كان صاحب جعفر الصادق كما زعم غيرهم انه كان من جملة البرامكة ومنقطعاً اليهم ومتحققاً بجعفر بن يحيى البرمكي وان من زعم هذا قال انه عنى بسيده جعفر هو البرمكي وقالت الشيعة انما عنى جعفر الصادق (الفهرست ص ٣٥١) ومن كلا القولين لا يفهم ان جابراً درس الكيمياء على احد الجعفرين او ان احدهما كان ملماً بهذا الفن وقد يقرب من الصواب ما جاء في كشف الظنون (ص ٣٤٤) ان جابراً اخذ الكيمياء عن خالد بن يزيد الأموي الذي سبق ذكره وقد وضع أسس هذا الفن وقطع فيه شوطاً بعيداً حتى أطلق اسمه عليه . ولقبه الفرنج بإضع الكيمياء . وله فيها اكتشافات خطيرة ومؤلفات جليلة يربو عددها على السبعين . فقد اكتشف التقطير والتصعيد وروح الخمر والحوامض القوية وطرق إذابة الذهب وترشيح السوائل وغير ذلك من الاعمال والمركبات الكيماوية الاساسية ، واخترع آلات وأجهزة كيماوية كثيرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ولم يكن للعرب في عهد الدولة الأموية من نبوغ في الطب اذ حل من اشتهر اذ ذاك من الأطباء لم يكونوا عرباً . وأشهر هؤلاء في ذلك الحين شمعون وثياذوق اللذان برعا بحفظ الصحة . وابو الحكم وابنه الحكم الدمشقي وعيسى بن الحكم الذين اشتهروا بالطب وابن اثال طبيب معاوية وكان خبيراً بالأدوية السامة القاتلة وكان معاوية يقربه لذلك (طبقات الاطباء ١ : ١١٧) .

على ان النبوغ العربي لم يقتبس من الاسكندرية ولما يشتمل في عهد الدولة الاموية ، اذ الفضل بحمل العلوم الدخيلة للعرب ونقلها الى لغتهم يعود جله للعجم علماء جنديسابور ، والفخر العظيم كل الفخر يجاب اولئك العلماء وتعريبهم ونقل علوم الاقدمين الى اللغة العربية وتهيئة الافكار لاقتباسها واستثمارها ونشر لواء الحضارة العربية في جميع الأقطار يرجع للخلفاء العباسيين الكرام .

* * *

وقبل البحث في النهضة العربية لا بد لنا من الاشارة الى الاسباب التي دعت الى انتقال العلوم القديمة من الغرب الى الشرق وجلها ناشيء عن الحروب الدينية والاختلافات المذهبية . فقد تلبدت في سماء الاسكندرية في اوائل القرن الثامن للميلاد ظلمات الأضاليل والاختلافات المذهبية فخسف منهل مدرستها الطبية القديمة فنقلها عمر بن عبد العزيز عام ٧٢١ الى انطاكية ومنها الى حران . واشتعلت نيران الفتن المذهبية في القرن السادس في آثينة فخرج منها الافلاطونيون الذين طردهم يوستينيانوس قيصر الروم فارين من وجه الظلم والاضطهاد ووجهتهم الشرق ملجأ الخائفين ومأمن العلماء المضطهدين في ذلك الحين ، فأكرم كسرى انوشروان العادل وفادتهم فتوطنوا فارس ونقلوا له كتب الفلسفة والطب الى الفارسية (الفهرست ٢٤٢) وتداعت أركان مدرسة الرها فنزح علماؤها الى العجم يحملون معهم زبدة علوم اليونان وخيرة كتب الأقدمين . وعلى الجملة انسدل ليل الجهل في أوائل القرن الثامن في اوربا فغربت شمس العلم منها منتقلة الى آسيا فلمعت حيناً في خراسان عند القسطورين ثم سطعت في بغداد مثوى الحضارة العربية حيث تكاثفت جميع أنوار العلم ومنها انبثقت على العالم أجمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واول المدن الشرقية التي فتحت أبوابها لعلوم اليونان الأقدمين ومعارفهم مدينة جنديسابور في خراسان ، وكان فيها في أوائل القرن الثامن مدرسة طب حافلة وبيمارستان لمداواة المرضى أنشأه كسرى انو شروان لا يقبل فيه الاطباء الا بعد الاختبار . وقد اشتهر بحسن الطب فيها أسرات كثيرة منهم آل بُختيشوع وآل ماسويه وآل الظيفوري وآل ماسرجويه كان لهم في نقل الطب للعرب أيادٍ بيضاء ومآثر حميدة .

وكان السبب في هجرة هؤلاء الأطباء الى دار السلام ان الخليفة المنصور بعدما بنى مدينة بغداد عام (٧٦٢) اعتراه مرض أفسد معدته وقطع شهوته ، وكان كلما عالجه الأطباء ازداد مرضه فتقدم الى الربيع بان يجمع الأطباء لمشاورتهم فجمعهم فقال له المنصور : هل تعرفون من الاطباء في سائر المدن طبيباً ماهراً ؟ فقالوا ليس في وقتنا هذا احد يشبه جرجيس رأس اطباء جنديسابور فأنفذ المنصور في الوقت من يحضره . وكان جرجيس هذا مديراً لدار الطب ورئيساً للبيمارستان فخرج من جنديسابور بعد ان أوصى ابنه بختيشوع بالمستشفى وامور واستصحب معه اثنين من تلاميذه ابراهيم وعيسى بن شهلا وقدم الى بغداد فعالج المنصور بتدبير حسن رجع به الى مزاجه الاول فقربه الخليفة وأكرم مثواه وأفاض عليه من وابل كرمه ما أغناه (طبقات الأطباء ١ : ١٢٤) .

ومن ذاك الحين شرع اساتذة الطب في جنديسابور يتقاطرون الواحد تلو الآخر الى دار السلام التي لم تلبث ان ورثت علوم تلك المدينة الزاهرة وجل علمائها فأصبحت عاصمة العلم الوحيدة في العالم . من ذاك العهد اخذ يتقاطر الى بغداد حملة العلم والمترجمون من جميع انحاء العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة والعرب متآخين متعاضدين يترجمون من اللغات كافة . من ذاك الدور بدأت تشيد في بغداد المستشفيات العامة والمجامع العلمية ودور الحكمة والصيدليات وقاعات الترجمة ومجالس الأدب والمناظرة مما يدعوه التاريخ النهضة العباسية او القرن الذهبي العربي .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا يسعني ان اذكر النهضة العباسية الا وأذكر بجانبها أسماء أولئك الأساتذة الكرام الذين نقلوا للامة العربية جل علوم الأقدمين بتدريسهم وتآليفهم وترجمتهم . واول من يجدر ذكره آل بختيشوع واولهم جرجيس الشهير طبيب المنصور الذي تقدم ذكره ثم خلفه ابنه بختيشوع بن جرجيس استقدمه الرشيد من جنديسابور وولاه رئاسة الأطباء وكان له ولد يدعى جبريل على جانب عظيم من الفضل والذكاء عهد به والده الى جعفر البرمكي فصادف ان اعترى هرون الرشيد احتقان صدري فشفاه منه بالفصد وشفى احدى جواريه من فالج صرعي بحيلة جميلة . فأعجب به هرون الرشيد وولاه رئاسة الأطباء وغمره باحسانه وظل جبريل بعد وفاة الرشيد موضع ثقة الأمين والمأمون ونال من الاكرام ما لا يسعه الوصف وجمع ثروة لا تقل عن تسعين مليون درهم في حياته مما ينطق بعظيم احترام الخلفاء للأطباء وتعظيمهم للعلم في اي اناء ظهر (طبقات الاطباء ج ١ من ١٣٢ — ١٣٧) . وخلف جبريل هذا ابنه بختيشوع بن جبريل وكان طبيب المتوكل وقد بلغ من رفعة الجاه وكثرة المال ما لم يبلغه احد في عصره .

وبجانب آل بختيشوع يتلألأ في سماء تلك النهضة آل ماسويه وكان ماسويه صيدلياً في مستشفى جنديسابور ، وقدم بغداد للارتزاق فتوفق لشفاء الرشيد من مرض أصابه في عينيه فحظي عنده . اما ولده يوحنا بن ماسويه فقد كان طبيباً ذكياً فاضلاً قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة التي وجدها في انقرة وعمورية وسائر بلاد الروم اثناء الفتح وقلده إمارة ديوان الترجمة (طبقات الاطباء ١ : ١٧٥) .

وممن يجدر بالذكر ايضاً آل ماسرجويه وهو الذي ألف كناشاً في الطب وسابور بن سهل وكان فاضلاً عالماً وله تصانيف مشهورة منها كتاب الاقرباذين الكبير الذي عمل به في البيمارستانات ودكاكين الصيادلة مدة طويلة .

وتذكر ايضاً تلك النهضة بالجميل آل الطيفوري عبد الله وزكريا واسرائيل وآل ثابت وطبيب هرون الرشيد الهندي صالح بن بهيلة وكثيراً غيرهم ممن كانوا أساتذة في الطب القديم ولجلهم مؤلفات مشهورة في السريانية نقلت الى العربية .

على ان الخلفاء العباسيين أدركوا بادئ بدء ان النهضة العلمية في الأمم لا تقوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بجلب العلماء الأعاجم والكتب الغريبة وانحصار العلم بفريق من الناس دون الآخر بل يقتضي لها ان يتعرب اولئك العلماء وان تترجم تلك الكتب وان ينشر العلم ما بين طبقات الامة من أدناها الى أعلاها ولذلك كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في استجلاب العلماء ونقل الكتب للعربية ، ويرغبون النقلة بالبذل والإكرام والمحاسنة على اختلاف ملتهم وأجناسهم ، ويحثون الناس على تعلمها واقتباسها بجميع الوسائل الخلابة ويجيزون على تأليف الكتب بالأموال الطائلة حتى حدا بهم ولعهم بنشر العلم الى بذلهم الاموال للطالعين فضلاً عن المؤلفين .

واول من قام بهذا الأمر الخليفة المنصور فقد دعا جرجيس الى ان يترجم له بعض الكتب الطبية ففعل غير انها فقدت جميعها . ثم جاء الرشيد ومن بعده المأمون فوسعا نطاق هذا العمل ولم يدخرا جهداً في سبيل تقويته . ولم يكتف العباسيون بنقل العلوم من السريانية فحسب بل طمحوا الى أخذها من مصادرها الأصلية فأرسلوا البعثات العلمية الى بلاد الروم وفارس والهند لاقتباس لغاتهم ومعارفهم وقد طلب الخليفة المأمون من قيصر الروم اذ ذاك ان يتحفه بكل الكتب القديمة المحفوظة في خزائنه لترجمتها فأجابه الى ذلك (الفهرست ٢٤٣) وأسس لهذا الغرض قاعات الترجمة وكان ينفق في سبيل نقل الكتب عن سعة حتى أعطى وزن ما يترجم له ذهباً (ابو الفرج ٢٣٦) واقتدى بالمأمون كثير من اهل دولته من اصحاب الوجاهة والثروة في بغداد كآل شاكر الذين تفانوا في طلب العلم وإكرام العلماء وكانوا ينفقون خمسمائة دينار في الشهر للنقل والملازمة . ومنهم محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ الفي دينار في الشهر (طبقات الأطباء ١ : ١٨٧) وهذا خير دليل على ان العرب لم يجدوا العلوم القديمة ولا سيما الطب لقمة سائغة تناولوها عفواً بلا تعب ، بل جاهدوا في سبيل إحيائها باموالهم وأولادهم وأنفسهم ، مدفوعين بخالص الشوق للعلم المجرد عن كل تأثير خارجي ، جهاداً اشترك فيه الشريف والوضيع والتاجر والامير والعبد والسيد من أحقر أبناء السوقة الى أجل سلطان وخليفة مما لم يسمع بمثله في تاريخ أمة من الامم .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأشهر اولئك العلماء المترجمين حنين بن اسحق العبادي . ولد في الحيرة عام ١٩٤ للهجرة ثم ذهب الى فارس وتخرج في العربية بالخليل بن احمد ثم انتقل الى بغداد ومنها رحل الى يونان حيث تعلم اللغة اليونانية ثم عاد الى بغداد وقد نضجت معارفه فاجترفه تيار ذاك المترك العلمي الهائل ، فلم يلبث ان نال قصب السبق في مضماره ، فترجم أبقراط وجالينوس وارباسيوس وابن أبجر ، وقلد رئاسة الترجمة فكان يتصفح الكتب المترجمة وينقحها وألف كتباً خاصة في الطب منها كتاب في العين (طبقات الاطباء ج ١ : ١٨٥ — ١٨٩) و برع بجانبه في النقل ابنه اسحق ثم حفيده حبيش .

واشتهر ايضاً بالعلم والحذاقة بالترجمة يعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . نشأ وتأدب في بغداد وكان عالماً بالطب والفلسفة والرياضيات والموسيقى وألف في كل هذه العلوم وأجاد ، وكان له وقوف تام على اليونانية فترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب و بسط العويص ، وكان عظيم المنزلة عند المأمون والمعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة منها رسالة في علة الجذام وكتاب في الأدوية المتحنة وكتاب الاقرباذين وغيرها من الكتب الطبية الدالة على خبرته وسعة اطلاعه . وقد نقل كتبه هذه الى اللاتينية جرار دي كريمونا في القرن الثاني عشر للميلاد .

ثم برع الى جانبه بالترجمة قسطا بن لوقا البعلبكي وثابت بن قره وابن البطريق وكثير غيرهم من العلماء الاطباء الأفاضل . فنقلوا بعد الجهد الى العربية كتب أبقراط وجالينوس وارباسيوس وديوسقوريدس وثاوفرسطس واسطاث والاسكندر الافروديسي وابن ابجر وغيرهم .

ولم يكتف العرب بنقل علوم اليونانيين بل دفعهم عامل الشوق للعلم الى نقل علوم الهنديين والفرس وكان للهند مدنية رفيعة ومؤلفات جليلة في علم الطب خاصة بهم . فترجموا مؤلفات سيرك الهندي وسيسرد واستانكر وشاناق وغيرهم . ومن الذين نقلوا علوم الهنديين منكه الهندي طبيب هرون الرشيد وابن دهن الهندي طبيب المستشفى البرمكي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و بالجملة فان العرب نقلوا الى لسانهم معظم ما كان معروفاً في الطب عند سائر الأمم المتمدنة القديمة ، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ثم مزجوا ذلك كله واستقطروه ، ثم أضافوا اليه كثيراً من مشاهداتهم وابتكاراتهم ، واستخرجوا ما نسميه قريباً : بالطب العربي .

* * *

ظلت بغداد مهد تلك النهضة العربية كعبة العلم ومحج العلماء ، الى ان ولي الخلافة جعفر المتوكل عام ٢٣٣ للهجرة فاضطهد أصحاب العلوم الدخيلة وأساء الى الاطباء ، واستفحل امر الترك وعظمت أذيتهم للعرب (المسعودي ٢ : ٢٦٩) ففترت قلوب دعاة العلم الحرة وشمخت نفوس طلاب الاصلاح الأبية من ان تألف الضيم وتغضي على القذى ، فتفرقوا رويداً رويداً من بغداد الى انحاء المملكة الاسلامية الى حيث يسود العدل وتورف ظلال الحرية ، يحملون معهم بذور العلم الصحيح فيغرسوها في تلك الصدور الرحبة الخصبة ، ويحرثوها بمحراث تلك العقول الكبيرة ويسقوها من موارد تلك الافكار السامية ، فنبتت عربية تحسدها أبكار اليونان ، قويمة الاغصان بديعة الزهور ذكية الاثمار ، يتضوع أريج نفحاتها في عامة انحاء المملكة العربية ، تلك المملكة التي سنشاهدها الآن في الصف الاول في المعترك العلمي وفي مقدمتها الرازي وابن سينا وابن عباس وابو القاسم وابن رشد وابناء زهر وابن الجزار والفارابي والصوري وابن التلميذ والنبطي وابن البيطار يحملون مصابيح العلم الصحيح ، يمزقون بانوارها ظلمات الجهل والأضاليل متجهين بها من خراسان والعراق ومصر والشام والقيروان والاندلس ، عن طريق صقلية الى سالرنة ، وعن طريق طليطلة الى مونبيلية ، حيث تكاثفت تلك الانوار ومنها عمت اوربا باجمعها .

واول اولئك الرجال العظام الذي يجدر بنا ان نتعته بالمجرب الكبير ابو بكر محمد ابن زكريا المشهور بالرازي . جالينوس العرب . ولد ونشأ في الري في منتصف القرن العاشر للميلاد وأولع لاول امره بالموسيقى ونبغ فيها ثم بالفلسفة والادب . اما صناعة الطب فقد تعلمها وقد اربت سنه على الثلاثين . وذلك ان حبه للسياحة رمى به الى بغداد وكان فيها علي بن ربن الطبري المشهور وكان متميزاً في الطب فدرس عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه الصناعة و برع فيها حتى فاق جميع اطباء عصره . وعهد اليه برئاسة البيمارستان العضدي المشهور وكان يطب فيه اربعة وعشرون طبيباً منهم الطبائعيون والجراحون والكحالون والمجبرون كل يداوي حسب اختصاصه . غير انه لم يلبث في بغداد حتى عاد الى بلده الري وتولى تدبير مستشفاها مدة طويلة . وكان الرازي ذكياً فطناً رؤوفاً بالمرضى ، مجتهداً في علاجهم وفي برئهم بكل وجه يقدر عليه ، مواظباً النظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن مكنوناتها وحقائقها ، وكان له المنزلة الرفيعة في الري وطار ذكره في البلاد وكثر طلابه من كل صوب وأربت مؤلفاته على المائتين . وكان يجلس في مجلسه ودونه التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ أخر ، فيجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم فان أصابوا والا تكلم الرازي في ذلك (طبقات الاطباء ١ : ٣١٠) . وأصيب الرازي في آخر ايامه بالزرقاء وامتنع عن عملية القدح وكان عرض عليه بعض المتطببين ان يقدح فسأله الرازي كم طبقات العين ؟ فلم يجبه . فقال له لا يقدح عيني من يجهل طبقات العين . وقد توفي الرازي عن عمر يناهز الثمانين سنة عام ٣٢٠ للهجرة .

ومن أشهر مؤلفات الرازي في الطب كتاب الطب الملوكي في العلل وكتاب علاج الامراض كلها بالأغذية ودس الأدوية بالأغذية حيث لا بد منها وما لا يكرهه العليل ، وهو كتاب بديع في بابه . وكتاب المنصوري ألفه للامير المنصور بن اسحق بن اسماعيل بن احمد صاحب خراسان وتحرى فيه الاختصار والايجاز مع جمعه لجمل وجوامع ونكت وعيون من صناعة الطب علماً وعملها ، وهو عشر مقالات درس في الاولى منها الطب الأخلاقي فعدد الصفات الكريمة التي يجب ان يتحلى بها الطبيب ثم حمل حملات عنيفة على الدجالين والمتطببين الأميين لما ينجم عنهم من الأضرار ومن كلامه في ذلك : الاطباء الأميون والمقلدون والذين لا تجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون . وقد نقل المنصوري الى اللاتينية جرار دي كريمونا ودرس في باريز زمناً طويلاً ومنه نسخة في دار الكتب العربية في دمشق .

ومن كتب الرازي المشهورة الجامع و يسمى حاصر صناعة الطب وفيه جمع ماوقع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليه وأدركه من كتاب طب قديم او محدث . وكتاب الجدري والحصبة وهو مفرد في بابه له من الشأن في العالم الطبي درجة رفيعة . فالرازي اول من وصف هذه الامراض واول من فرق الحصبة عن الجدري وكان سلفه يدمجونهما معاً . ووصفه هذين المرضين مستوفٍ من كل الوجوه شامل لأنواعها غير الطبيعية وهو يداوي بهما بصورة حسنة ومما يسجل له بقلم الفخر انه اول من قال باستعمال الماء البارد في الحصبة المختلطة والاختناق الصدري وهذا من خيرة ما يتوسل به الطب الحديث في معالجة مثل هذه الادواء . وقد لفت الرازي النظر في الانذار في الجدري الى نقاط مهمة لا أرى في بيانها احسن من ان اقرأ على مسامعكم كلام الاستاذ بوشوت في تاريخ الطب والمذاهب الطبية (ص ٣٤٧) وها كم تعريبه عن كتاب الجدري للرازي : « هنا يتجلى الطبيب المجرب باكمل مظاهره اذ لا يوجد في مشاهداته ما يدعو للانتقاد (فقد قال الرازي في الانذار في الجدري) يوجد نوع من البثور البيضاء الكبيرة الحجم تكون في الغالب قتالة وهي البثور المتفشية التي تمتد بصورة يتصل بعضها ببعض وتشغل مساحة كبيرة او التي تؤلف دوائر متسعة ولونها لون الدهن . قال بوشوت ولم أر اصح من هذه البينة فاني ما شاهدت بثور مجدور انبسطت وتلونت بلون الدهن او الجص الا وكان الموت نتيجتها » . وقال بوشوت ايضاً (ص ٣٤٠) الف الرازي كتاباً في امراض الاطفال وهو اول كتاب في هذا الموضوع ظهر في التاريخ وكتاباً في دودة المدينة وفي الانتفاخ العظمي السلامي الذي لم يصفه احد قبله .

وللرازي رسالة في الحصا في الكلي والمثانة منها نسخة في دار الكتب العربية الظاهرية في دمشق رقم (١٠٣) وهي من خيرة ما كتب في هذا الموضوع . عدد فيها الرازي الاسباب التي تتولد منها هذه العلة . ثم بحث في طرق الوقاية منها وكيفية مداواتها مما لا يختلف عما يأتيه الطب الحديث في هذا المرض .

وأجل كتب الرازي وأعظمها : (الحاوي) جمع فيه كل ما وجده مشتتاً في ذكر الامراض ومداواتها من جماع الكتب الطبية للمتقدمين ومن اتى بعدهم الى زمانه ونسب كل شيء نقله فيه الى قائله ونقد تلك الأقوال بصورة تنطق بسعة اطلاعه وفرط ذكائه وعظيم تجاربه . وقد درس فيه الرازي بالتتابع الامراض الموضعية ثم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الامراض العموميـة ثم السموم والافرازات السامة ثم الادوية . والطب مدين له بمشاهدات كثيرة في الحميات الخبيثة وامراض الاطفال وامراض الجلد والتقلصات الوجهية الاختلاجية الموجعة . وفيه يوصي كسلفه بالاهتمام بمعاينة البول وينتقد بشدة فرط استعمال المسهلات القوية التي تخرش المعى . وفي كتابه الحاوي في بحث الحميات نظرية خطيرة لم يسبقه اليهـا احد وهي ان الحمى ليست مرضًا حقيقيًا بل هي عرض ينبئ بمقاومة الجسم لدفع المرض الحقيقي .

اما من الوجهة الجراحية فالطب مدين للرازي بأول مشاهدة في انتناخ العظم السلامي وبمشاهدات في الفتق والدوالي الوريدية والأورام الباسورية والحصى والقيلة المائية وانقلاب الرحم والجيوب الوعائيـة . وينتقد على الرازي في الجراحة استعماله الآلات في تجبير الكسور وارجاع الخلع بدل اليدين . ويرى ان الرازي لم يهتم بادئ بدء بالجراحة التي كان يعانيها اذ ذاك الدجالون وغيرهم غير انه عني بها اخيراً وأجرى بنفسه عمليات كثيرة ومع ذلك فهو لم يشتهر بالجراحة .

وينتقد كتاب الحاوي لكونه مشوشًا مضطربًا والسبب في ذلك ان الأجل لم يفسح للرازي ان يحرر هذا الكتاب فتركه بصورة مسودات اخذها ابن العميد استاذ الصاحب بن عباد من اخت الرازي بعد ان بذل لها دنانير كثيرة وجمع تلاميذه الاطباء الذين كانوا في الري فرتبوا الكتاب على صورته الحالية (طبقات الاطباء ج ١ : ٣١٤) .

وقد كان للحاوي رواج ومكانة عظمى في عالم الطب في آسيا واوربا . فترجم الى اللاتينية عام ١٢٧٩ ميلادية والسبب في ذلك كما قاله لكرينك في كتابه تاريخ الطب العربي (ص ٤٦٢) وهو ان الشهرة التي طارت لهذا الكتاب في آسيا والمغرب دعت الملك شارل ملك صقلية الى اتحاف أمته بمثل هذا الكتاب المفيد فأوفد الى تونس بعثة علمية وطلب الحاوي من اميرها في ذلك الوقت وعهد الى فراجيوس اليهودي وكان يحسن اللاتينية والعربية فنقله له ومن ذلك الحين انتشر في جميع مدارس الطب الاوربية . ولم تزل للحاوي منزلة رفيعـة في هذا العصر وذلك لتمثيله الطب العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولما فيه من المشاهدات والنظريات ولما ذكر فيه من اسماء الأقدمين الذين لم يعثر على شيء من تراجمهم ولم يعرفوا ويحيوا الا به .

والرازي اول من استعمل المواد المعدنية المركبة في المداواة كمورياتالزيبق والبورق وآزوتية البوتاس وروح النشادر وملحه وغيرها وهو اول من فرق العصب الحنجري الاعلى من العصب الراجع واول من ذكر ماء الحياة ..

ويتضح مما تقدم ان الرازي لم يكن مقلداً كمن سبقه من الأطباء بل كان اماماً مجتهداً ، انتقد الأقدمين في كثير من آرائهم وأضاف على الطب القديم مشاهدات جمة ومفردات كثيرة وتجارب عديدة (كما هو مبين في كتابه تجارب المارستان) ونظريات مبتكرة حققتها العصور التالية من بعده . وعلى الجملة فقد كان الرازي استاذاً في الطب وبطلاً من أعظم أبطال هذا العلم وعاملاً كبيراً في النهضة الطبية العالمية .

(للكلام صلة) الدكتور اسعد الحكيم

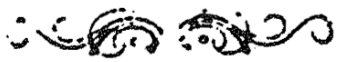

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net